غونار إيكيلوف

درب الغريب

(مختارات شعرية)

ترجمها عن السويدية

كاميران حرسان

راجعها

محمد عفيف الحسيني

كتاب الدوحة

درب الغريب

يُوزّع مجّاناً مع العدد (106) من مجلّة «الدوحة» - أغسطس - 2016

درب الغريب

تأليف: غونار إيكيلوف

الناشر :
وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

العمل الفني للغلاف:
الإخراج والتصميم: القسم الفني - مجلّة الدوحة

المواد المنشورة في الكتاب تُعبِّر عن آراء كتّابها، ولا تُعبِّر -بالضرورة- عن رأي الوزارة أو المجلّة.

تقديم

وصف غونار إيكيلوف (1907 – 1968)، مرّةً، مشوار حياته بـ«درب الغريب»، المبتعِد والمبعَد عن كلّ شيءٍ. فصيغة الألم ترجع أصولها إلى طفولةٍ هشّة، قلقة، مستمِدّة نِسغَ تعاستها من افتقاده للأبوين: ظلال الأب المتوفّى بالسفلس، وغونار في ضوئه الرابع، والأمّ التي غمرته ببرودة المشاعر وأسى اللامبالاة، مانحةً إرث الروح لبعلها الجديد.

في عام 1926، أنهى إيكيلوف المرحلة الثانوية، ثم سافر إلى لندن لمتابعة تحصيله العلمي، حيث درس اللّغات الشرقية «البنغالية، والهندية، والفارسية»، والتي تابع دراستها، لاحقاً، في جامعة أوبسالة، حيث راودته فكرة الهجرة إلى الهند، لتأثُّره العميق بتراثها وثقافتها الإنسانيَّيْن. كذلك لتأثُّره بالصوفية المشرقانية، كصوفية جلال الدين الرومي، وسعدي شيرازي، وابن عربي، مترجماً «ترجمان الأشواق» إلى السويدية. يُعَدّ غونار إيكيلوف من كبار المجدّدين الكلاسيكيِّين في الشعر، وأحد أبرز شعراء الأدب السويدي، على الإطلاق، فضلاً عن كونه كاتب مقالة مميَّز، ومحلِّلاً شعرياً بارعاً. مكانته المرموقة في الأدب السويدي لها امتدادها

العميق في القدرة الفنّيّة، والاستقلالية، والاعتداد الطبيعي في نظم الشعر، كذلك في ريبته بالأعراف والتقاليد، وتشكُّكه القويّ فيها.

في عام 1932، صدرت مجموعته الشعرية الأولى «متأخرٌ على الأرض»، التي سمّاها الشاعر «كتاب الانتحار»، لسوداويّتها وتخبُّطها في أعماق التشاؤم والاكتئاب.

المجموعة متأثِّرة بأجواء عالم السريالية الحالم، وقد نظم جزءاً من قصائدها في باريس، التي حجّ إليها الشاعر ليحترف الموسيقى، حيث تعرَّفَ، هناك، بكبار الفنّانين الدادائيِّين والشعراء السرياليين، مثل آرب، وبريتون. وأضحى، خلال إقامته هناك، على اتّصال وثيق بالمدارس والتيّارات الأدبيّة والفنّيّة التصويرية، كالمستقبلية، والدادائية، والسريالية، المهيمنة آنذاك.

لم يكن الشارع الأدبي السويدي مهيَّأً بعد لفهم هذا النوع من التجديد. حتى الهيكل الخارجي لشكل القصيدة لم يجد صدىً يُذكَر لدى النقّاد، فقد حُرِّرت بعض الفقرات باللون الأحمر، التي لم يتمكّن من حلّ ضفائر فتنتها الإبداعية إلَّا فئة قليلة من القرّاء المتنوِّرين الذين أدركوا، بالفطرة، الرابطة العفوية المتبادلة بين غزل الفنّيّة العالية وثورة غونار اللغوية؛ ففي قصيدته «تنام الورود على النافذة» ما يأتي:

«الورود تتَّكئ على الليل، والقنديل يغزل نوراً في الزاوية.. تغزل القطّة كبّة صوفٍ لتغفو معها.. بين الحين والآخر، يشخر إبريق القهوة بعبَقٍ، والأطفال يلهون بكلماتٍ على أرض الغرفة. تغيب كلمة (أنا) التي تُستَبدَل بوجودٍ غير مرئيّ للأشياء التي تحيا حياتها الخاصّة، في انتظار سكون الموت».

وفي «متأخِّر على الأرض»، يكمن اشتياق مستلهَمٌ من الهند للانصهار في بوتقة الكلّ، محرِّر الأنا، في الحلم أو في الموت، ورغبة في توحيد الشعر والغرائبية في قالبٍ موسيقيٍّ واحد.

مجموعته الثانية السريالية، الرومانسية «تكريس» (1934)، التي استهلَّها بمقولة رامبو الشهيرة «يجب أن يجعل المرء نفسه مراقباً»، حظيت برضى النقّاد وإعجابهم، فقد شعروا بأنهم أمام شاعرٍ مبدع، جادّ وعميق، خرج بالشعر من طابعه المألوف إلى اللامألوف، مؤسِّساً نداءً شعرياً جديداً، يتَّسم بالبساطة والعمق. بيد أن شهرة غونار إيكيلوف الكبيرة جاءت عام 1941، في «أغنية العَبّارة»، بعد مجموعتَيْه الرومانسيتين: «الحزن والنجم» عام(1936)، و«اشترِ أغنية الأعمى» عام (1938). أضحت «أغنية العبّارة»، بأسلوبها السهل، وبآنيّة المخاطبة فيها، وبسرمديّة غرائبيّتها المستلهَمة من الشرق، واحدةً من أعظم المجموعات في الشعر الغنائي السويدي.

يقول إيكيلوف: «من يعشْ فعلاً، يبدُ كأنه ميِّت».

في «أغنية العبّارة» يُركِّز غونار إيكيلوف على ما هو مشترَك بين الناس، مبتعداً عن الجماعية، وعن «كلّ شكلٍ من مخدِّرات الاستبدادية الشمولية». ففي «أفوري»، كتب متأثِّراً بفرويد:«كلّ إنسان عالَم مسكون/ بمخلوقاتٍ عمياء في ثورةٍ معتمةٍ/ ضدّ سلطان الأنا الذي يحكمهم».

دافع غونار إيكيلوف، طوال حياته، عن «الطيبة غير المنظَّمة»، مؤمناً بطاقة الشعر الداخلية وقدرتها على التأثير الإيجابي في الطبيعة البشرية.

يحتفي في «Non serviam»، الصادرة عام 1945 التي تعني- باللاتينية-

«أنا لا أخدم أحداً»، بأولئك الذين ليس لهم مكانٌ داخل المجتمع المتحضِّر، بأولئك المنبوذين والغرباء، منتقداً دولة الرفاهية ونظافتها المفرطة ودُورِها الشعبية المعقّمة، التي أضحت حتى الغيوم، فيها، مربَّعة الشكل. معبّراً في العديد من قصائد المجموعة عن هدفه الجديد بأن يعترف بلا معنى الحياة، وأن يغدو واحداً من الناس فيها. كتب في إحدى مقالاته، آنذاك، ما معناه: لا معنى الحياة، يمنحها معنًى.

في مجموعة «في الخريف» (1951)، يفهم غونار إيكيلوف الحقيقة بوصفها كُلًّا مجتمعاً، وهذا الاكتشاف- بحَدّ ذاته- قد يهَبُ السعادة المطلقة. في عرضٍ قصيرٍ للكتاب، بَيَّن الشاعر أن قصيدة الديوان الأولى حقيقة (مُتَخَيّلة)، والأخيرة حلم (واقعي)، تعطيان صورةً «للتطور والإيقاع الداخلي لهذا الكتاب الجديد: «من نصف عتمة إلى عتمة صاعقة، كنوعٍ من أجواء الغروب والاستمتاع بالحياة في أواخر الصيف، إلى رؤيا سوداء يائسة وأكثر من متشائمة، لأنها تودّ مواجهة الحقيقة، وتجبر روح الإنسان على الرضوخ لها. مرثية (مولنا)، عمل أدبيّ مهمّ، بدأ العمل فيه في أواخر الأربعينات، وصدر عام 1960، وهو عبارة عن سرد شعري، حكائي، بتراكيب موسيقية واضحة، واستعارات، واقتباسات من الأدب السويدي القديم، تتمحور الأحداث فيها حول تاريخ العائلة، حول شخصياتٍ حاضرة وقريبة، وأخرى مستعادة من غبش الماضي إلى النور، لتصوغ ملامح واقعها وتقاطيع مصائرها بنفسها، لتكون صلة الوصل بين الحاضر والمستقبل عند رصيف (مولنا)، في جزيرة ليدينغة. القصيدة صعبة، وعرة وغامضة، ذات تراصفٍ هائل وكثيف للأفكار، كما أنها مركَّزة المعاني، وقد تكون متأثّرة بجحيم دانتي.

حاز إيكيلوف على العديد من الجوائز الأدبية المرموقة: سويدياً، وعالميًا، ونال آخر جوائزه قبل وفاته بأمدٍ قريبٍ عن ثلاثيّته الصوفية الشهيرة التي اعتلى بها قمّة الإبداع الشعري «ديوان عن أمير أمجيون» (1965)، و«حكاية فطومة»، (1966)، و«دليل إلى العالم السفلي»، (1967).

توفّي غونار إيكيلوف عام (1968)، إثر إصابته بسرطان الرئة، عن عمرٍ ناهز الستّين عاماً.

المترجم

من ديوان

«دليل إلى العالم السفلي»

(1967)

عندما يتوغَّل أَحَد

عندما يتوغَّلُ أحدٌ مثلي، عميقاً، في الخواء،

تُمسي كلُّ كلمةٍ، بحَدِّ ذاتها، هامةً من جديد:

اكتشافٌ في الثرى

كالذي يُقلَّبُ بِمسحاةِ منقّبِ آثارٍ:

الكلمة الصغرى هي أنت؛

لعلّها خرزةٌ،

ربّما، تدلَّتْ يوماً من عنقِ أحدِهِمْ!

الكلمةُ الكبرى هي أنا؛

شظيّة صَوَّانٍ،

لعلّ أحدَهم، لانعدامِ الأسنانِ، شَحَفَ بها لَثَّته القاسية.

ماءٌ وأرضٌ

مصغياً إلى الحلمِ، عام ألف وتسع مئة وثلاثة وستين ، في الخامس عشر من أحدِ شهورِ الخريفِ، في منتصفِ الليلِ:

«تتمدّدُ نائماً في تابوتٍ حجريٍّ بلا قاع»

شبهَ مستيقظٍ من هذه الكلماتِ. لم يكن نائماً، ولم يكن مستيقظاً.

يبرزُ التابوتُ المصنوعُ من المرمرِ، الآن، أمامَ عينيّ جليّاً

ظليلاً وأبيضَ لامعاً، بعدّة تفاصيلَ واضحةٍ

بدايةً، الأطرافُ، من الداخلِ، بخشونةٍ نُحِتَت: اثنانِ طويلانِ، اثنانِ قصيرانِ،

لــمْ يولِها النحّاتُ اهتماماً كافياً؛

فآثارُ ضرباتِ الإزميلِ مرئيّةٌ في كلّ مكانٍ، والزوايا مقوَّسةٌ.

يبدو أنه كان قد سخَّر كلَّ مهارتهِ للمظهرِ خارجاً

حيثُ ثمّةَ ثمارٌ، أزهارٌ، أطيارٌ، دلافينُ، وزخارفُ رومانية،

كذلك مقاطعُ من أسطورةٍ، شكلانِ من المحارِ

يمسكُ كلٌّ منها بخمارٍ ملوّه الريح،

أفتِّشُ عن اسمي،

فيخطرُ في بالي بصفاءِ منطقِ الحلمِ،

إنْ لــمْ يكنْ للتابوتِ قَعرٌ، فلن يكونَ لهُ غطاءٌ كذلك؛ فذاكَ الذي هنالكَ يستريحُ مستلقياً،

مديراً ظهَره صوبَ الفناءِ، ووجَهه نحو الفناءِ.

فقطْ، حقلُ طاقةِ الجدرانِ الأربعةِ تبقي النائمَ

محلّقاً بين قسرِ داخلٍ وَضيعٍ متمنِّعٍ

وسلطانِ خارجٍ موشَّحٍ بأسطورةٍ مبتغاةٍ!

أيّتها العذراءُ! آهٍ، يا آتوكوس[1]! ما إن يتحطّم حقلُ الطاقةِ هذا

دعيني لا أولدُ في الحلمِ ثانيةً، أو لا أُخلَقُ؛

فما كان من قبلُ لم يكن عليه أثر الأزاميل،

وما سيكونُ، من الآن فصاعداً، لن يحظى بثمارٍ أو زهر.

---

(1) آتوكوس ، نولي بارا: التي لم تلد طفلاً، هي نقيضٌ لثيوتوكوس والدة الآلهةِ أو العذراء. يبدو أنه خصّ بدعائه الربّة الأسيوية القديمة، التي هي أمّ للجميع، دون تمييز، عُبدَت بأشكالٍ شتّى، على مَرّ العصور.

من ديوان

«عن أمير أميجيون»

(1965)

إغفاءة

لو كانَ بوسعي أنْ أصفَ علاءً

لاخترتُ أزرقَ

وذرّتَيْ غبارِ ذهبٍ

نجمة عند الرأسِ

نجمة عند القدمين

وتحت القدمِين مرآةُ صورةٍ

تنتهي بنجمةٍ.

إن كان بوسعي أن أصفَ عرضاً

لاخترتُ ذراعاً؛

هذا لأنني أمتلكُ حواسَّ

مزيَّفةً، بدائيةً

لا تدركُ واقعاً موجوداً.

ليس ثمّةَ نجمةٌ

حيث رأسُك.

ليس ثمّة نقطةُ وسطٍ

حيث تقفُ قدماكِ.

لكن، عهدتُ فيكِ رقَّةً،

لم أزل مُثقلاً بها.

أمير أميجيون، أمير كرديّ

أميرٌ كرديّ،

مسجونٌ في «فلاتشرنه».

أكرّس لنارِكِ هذه الخطبة.

العذراءُ التي لايملكُها أحدٌ،

مالكةُ اللاشيءِ.

أخبرتني روحي بأنني سوفَ أثورُ ضدّهُم،

ولو عُلّقَ رأسي، بعدها،

على رمحٍ، فوق بابِ المدينةِ،

أبداً، فكري معكِ،

ياعذراءَ النارِ والفناءِ.

أمير اميجيون مكث هنا

مكثَ هنا أربعَ، أو خمسَ سنواتٍ،

كان أميراً لأحد الثغور،

لا يُعوَّلُ عليه،

كانَ يُشكُ بأنهُ يتعاطفُ معَ حزبِ المُدانِ،

«فاسيلنس رومانوس»،

جسداً وروحاً.

زوجتهُ أو- ربّما- كريمتهُ، صلّت له في قلبها،

ووجدانها.

وفي الاضطراباتِ، قبيلَ عزلِ «نيكوفورس فوتانيتس»،

أُفرِجَ عنهُ، فقط، بعدَ أن سُلبَ بصرهُ،

لقد كانَ ضحيّةً لهرطقةِ المانويّة.

الزنزانة

تروي الحكايةُ أنّ عاشقاً أعمى،

كانَ أميراً،

كثيرَ الحقوقِ،

لكنْ، كانت الأحصنةُ أحبّ الأشياءِ إلى قلبهِ.

وهكذا، سُلبَ بصرهُ،

بإبرةٍ متوهِّجةٍ،

قال: لم أرَ نوراً أكثرَ قوةً

من ذلك،

ولا ديجوراً أعظم،

لكنني علّمتُ يديَّ أن تبصرا نوراً آخر،

هو نورُ اللمسِ،

وهو القادرُ، بإحساسهِ، على أن يرى

في صوتكَ،

إن كنتَ شاباً،

أو كهلاً،

جميلاً،

أو ذكياً.

لم أزلْ أحيا في القسطنطينة

لم أزلْ أحيا في القسطنطينة

أميرٌ كرديٌّ من قبيلةٍ،

تطلُّ مراعيها على «وان»،

ثلاثة أيّام، ثلاثُ ليالٍ، تمدَّدتُ على هذا الطينِ،

وبجسدي دفّأتهُ،

بلَّلتهُ بمائي،

عجنتهُ بأقذاري،

حتى يجفَّ، كي أُكوِّنَ أسماءهم،

بكتابةٍ فارسيةٍ،

ليسَ بمقدورهِم قراءتُها.

سفَحَ الجلّادُ دمي..

سفَحَ الجلّادُ دمي

لم أشعرْ بهذا..

أهانني،

طوّلَ أعضائي

إلى ثلاثةِ أضعافٍ

وجَدَلها

إلى حبلٍ بثلاثِ ضفائر

من جلدٍ، من صياحٍ

لكن رجولتي، يا جلادُ

لا تكمنُ بين فخذيَّ.

إدراكي، يا جلّاد،

خائنٌ أسماءَ وهميّةً.

لا يكمنُ في إدراكي، يا جلّاد،

بل يكمنُ في قلبي، يا جلّاد

اطعنه، يا جلّاد،

وابرُمْ..

سَتَراه

يحلّقُ مختفياً،

بعيداً عن كلِّ خياناته

قلبي

لم يكن، أصلاً، داخل قلبي.

البئر المطهّرة

قوديني، أيّتها الأميرةُ، من يدي..

دعينا نذهب

بعيداً عبر ميزوبوتاميا*،

إلى بلادِنا.

لن يؤذينا أحدٌ،

ولن نؤذيَ أحداً،

العماءُ يقوّي الرؤية،

إلى حَدِّ النورِ.

(*) ميزوبوتاميا: الهلال الخصيب

تركتُ الحجّامَ يجتثّ

ما تبقّى من العينين،

ويحرقُ الصديدَ،

بحديدٍ متوهِّجٍ.

هذا بلدُ المغنّينَ العميان،

وقد وُجد الكثيرُ من أمثالِهم.

زوجتي تقودني من يدي

وعكّازي، نجّرته بنفسي.

من يدري أننا أمراءٌ؟

حتى هذه الطيورُ التي تُطعَم،

اكتفت بالقليلِ

كتلك الطيورُ التي مازلتُ أسمعُ تغريدَها،

أستمعُ الآن، إلى ما كنتُ، يوماً، قد رأيتُه!

في الطريقِ إلى سرديس

أخبرَتْني بما قد رأتْهُ،

في الكهوف، والأسوار المتهدِّمة على الجبال:

صوراً محفورةً في الجبل،

لستُ أدري لِمَن تكون،

ومَنْ نَحَتها!

قالت: إنّ الثلجَ يغطّي الجبالَ،

كما لو أني لم أشعر به!

قالت: إن الفلّاحين يرتدون الألبسة الزاهية،

كما لو أني لم أعرف ذلك!

هذا طريق المَلك،

وهو يعبر الشتاء،

إلى ميزوبوتاميا،

ومن هناك إلى المرتفعات في بلادي،

إلى النجمةِ المرصَّعةِ في القوسِ.

في الشتاءِ الجديدِ.

وهناك، أودُّ أن أسمعَ جداولَ الجبال

وغدرانَها، وهي تصمت،

لأستطيع سماعها، من جديد.

المياه المطَهِّرة

في المياهِ الراكدةِ أبصرتُ نفسي،

روحي

تجاعيدَ شتى،

بدايةً، لرقبةِ ديكٍ رومي،

عينَيْن خافتتَيْن،

فضولاً عظيماً،

تهوُّراً لا شفاءَ منه،

تواضعاً لم يكتملْ علاجُه بعد،

صوتاً لا تناغمَ فيه،

بطناً بُقِرت

وحيكت ثانيةً،

وجهاً تركَ فيه الجلّادون علاماتِ استفهامٍ،

قدَماً مبتورةً،

لساناً للسمكِ،

أبتغي الموتَ

ويدُ أحدٍ ما في يدي.

كذا أرى نفسي في الماءِ.

تاركاً كسوةَ الكتّانِ المعَفَّرةِ خلفي

أميراً كرديّاً،

يسمّيه الرومُ والسلاجقةُ كلباً.

جبهتي الصلعاءُ في الماءِ.

كلُّ هذه اللغاتُ المهشَّمةُ

أقنعتني بأنني أخرسُ،

وهذه اللطخُ على القميصِ

التي لا يمكن غسلُها بالماءِ

غيرُ قابلةٍ للمَحْوِ، كالدمِ، كالسمّ..

ستطمرُها لطخُ الهرطقي،

كالجدري،

بلطخٍ أشدّ سواداً.

عندما انقضتِ السنةُ الخامسةُ

ارتقى الأميرُ أحدَ جبال كردستان،

تعباً من عماءِ الإمبراطورِ

شَبِعاً من رؤاه،

ووثب بمساعدة عبدٍ،

بعيداً، في الفضاءِ.

لم يعثرْ أحدٌ على عظامهِ،

سوى الحدآت،

وهكذا.. هكذا، كان المكان مختاراً.

من ديوان

«حكاية فاطمة»

(1961)

لقاء ببائع

في إحدى أزقة البازار،

التقيتُ ببائع السيور،

الذي أراد أن يبيع لي سيوراً من غير أحذيةً،

حمراء وسوداء، قطنية أو مصنوعة من الحرير.

لم يرَ أن قدميّ كانتا حافيتين.

لاريب أن الرجل أعمى، أو مجنون،

أو لعلّه حكيم!

تبادلنا التحيّة بإيماءة، كما تعرف،

وضَحِك كلانا.

في الخريفِ أو في الربيع

في الخريفِ أو في الربيعِ..

ما الفرق؟

في اليفاعة أو في الكِبر..

ثم ماذا؟

رغمَ هذا، ستختفي

في الصورةِ كلّيّاً.

أنت مختفٍ: اختفيتَ

الآن، منذ برهةٍ،

منذُ ألفِ عامٍ مضى..

بَيْدَ أنَّ اختفاءك

باقٍ.

من ديوان
«أوبس إنكرتون»
(1959)

إني أتـــلفَّت

إني أتلفَّتُ،

الآن، وأنا في منتصفِ الطريقِ، إلى العالمِ الآخر،

بِليلٍ خلفَ ظهري

مُكَفَّناً بحرارةِ الليلِ الغامضةِ

كمثلِ متجوِّلٍ في مكانِ استراحةٍ،

يديرُ ظهره لشمسٍ

وزرقةُ ظلالِ كفَّيْهِ تغطّي محيّاه!

هكذا هو عبورُ الحدودِ!

آهٍ، إنني أبصرُ هناك، في العالمِ الآخر،

مطراً رعدياً متجوِّلاً، مطرَ شمسٍ يمرُّ عبر

محاصيلَ متموِّجةٍ، أنهاراً برّاقةً

في مساراتها الغابرةِ

ومدائنَ غابرةً تحت الشمسِ،

بأدخنــتِها الغابرةِ المتصاعدةِ

نحو ما هو مخــفيٌّ في هواءِ نهايتــهِ!

هناك، بعيداً، في العالمِ الآخر،

نحوَ مستقبلٍ،

أتلفَّت.

شاعريّة

للصمتِ، سوفَ تصغي

للصمتِ، خلفَ المناجاةِ والإيماءاتِ،

للصمتِ، في البلاغةِ،

أو لما يُسمّى- رسمياً- بجملةٍ مكتملة.

إنّه البحثُ عن شيءٍ بلا فحوى،

في شيءٍ ذي فحوى،

وبالعكس.

وكلُّ ما أبتغي، بفنّيَّــةٍ، الإفصاحَ عنه

هو شيءٌ، على العكس، عديمُ الفــنّيّة،

المحتوى فارغ.

كل ما دوَّنتُــهُ،

مُدَوَّنٌ بين السطورِ.

من الماضي

من الماضي نهضتْ روحُ النهرِ كالغَمامِ،

حامتْ جيئةً وذَهاباً

متجمِّعةً أمامَ الأشجارِ المتسائلةِ.

ساءلتْ مغمغمةً:

أينَ أنا؟

منْ ذا الذي أيقظني؟

لمْ تحظَ بردٍّ من أيِّ صيّادٍ مذعورٍ.

لم يُطلبْ منها حبسُ نفسِها في القُمقمِ، ثانيةً.

وعندما شاهدَت ختمَ سليمانَ يتعاظمُ على الشطِّ

بــعثَــتْه في زوبعةِ هواءٍ باردٍ

لينتشرَ، بعدها، على المروجِ، مفتّشاً عن ألفِ عامٍ ضائعة.

إنني أكتبُ إليكِ

أكتبُ إليكِ من بلدٍ بعيدٍ:

ليسَ لهُ لونٌ

ليست لهُ صورٌ أهَبُكِ إيّاها،

لا يهبُكِ فكرةً.

إنه بلدٌ بعيدٌ..

كيفَ الوصولُ إليه؟

بملاحقــتهِ، فحسب،

لكنْ، ليسَ بالأفكارِ والتصوُّراتِ؛

فالملاحقةُ تعجْرُفٌ، والتوقُّفُ تعجْرُفٌ.

إنْ تــتبَّعْتَها، واقعياً.

بواقعِ ما تملِكُ،

تصلُها.

إنْ تتركْ ما مضى

خلِّ..... فكَّ

ميلاً بعدَ ميلٍ،

إنْ تركتَ نفسكَ وراءك

بلَغْتَها.

إنها أرضٌ نائيةٌ، لا قربَ لها

فإنْ بلَغْتَها فلنْ تجدَ سوى أرضٍ نائيةٍ،

أرضٍ نائيةٍ!

لا شيءَ آخرَ هناك؛

لهذا، كلُّ شيءٍ مختلف:

العشبُ بعيدٌ، والأبقارُ التي ترعى نائيةٌ، البيوتُ والزرائبُ نائيةٌ...

البئرُ بعيدةٌ جدّاً.

كلُّ شيءٍ ناءٍ، تراباً كان أم ماءً، أرضاً كان أم سماءً.

كذلك ذاتُكَ التي تهواها.

أجل، كذا..

كذا- بالضبطِ- هي:

إنها أرضٌ، وطنٌ..

أرضٌ نائيةٌ..

وطنٌ ناءٍ.

أرضٌ وطنٌ.

اليونان

آهٍ، يا الصومعةُ المطليّةُ بالكلسِ،

والأيقوناتُ المهترئةُ بالقبلاتِ!

بابُكِ مُقفلٌ

بمسمارٍ وشريطٍ من الصوفِ، فحسب

كذاك الذي نجدهُ بين الأشواكِ،

كالذي نَجدُلُهُ حولَ الإصبعِ.

ثمّة قارورةُ الزيتِ، في الخدمةِ ما فتئَتْ،

وكذا القنديلُ المُشحَّمُ والمجمَرةُ

من أجل مَنْ لديهِ دراهمَ

لِمَن معهُ أعوادُ ثقاب.

أيقوناتٌ قديمةٌ وفتيّةٌ

وهَبَتْها الأمّهاتُ.

المناسباتُ لم تُفْتَقَدْ بعد،

لأجلِ الذي لازالَ في المعْبَرِ،

لِمَن اختُطِفَ من أجل الإنكشاريّة،

لِمَن أضحَتْ تجاويفُ عينيهِ خاويةً،

لذاكَ الذي غابَ مع ماركوس ـ

هيَ طَبعاتٌ فقيرةٌ تحتَ زجاجِها.

كبيرةٌ، صومعتُكِ، كزريبة أغنامٍ،

نواقيسُكِ للأغنام جلاجل

مصعّدةٌ، ذات مكانٍ، عالياً، في الجبالِ.

يا الصومعة ذاتَ القفلِ الصوف.

ابن عربي

من الهمِّ إلى الغمِّ،

إلى الهمِّ ثانيةً،

و- فجأةً- إلى السعادةِ

ترميك الحياةُ.

لنْ تتعافى حتى تعترفَ:

«بأن الذي تهواه بين ضلوعكم[1]

تقلِّبه الأنفاسُ جنباً إلى جنب».

(1) البيت الشعري الوارد في القصيدة، هو للشاعر العربي المتصوِّف «محيي الدين بن عربي»، وقد أوردته بصيغته الأصلية.

من ديوان

«خزعبلات»

(1955)

مطرَّز صيني

عشُّ الطائرِ الناريّ هو القلبُ،

مشيَّدٌ بأغصانِ الشرايينِ،

مُبطَّنٌ بالجمرِ.

غَير أنّ الطائرَ، هناك، يحتضنُ حرارةً أعلى:

كأنَّ الجمرَ يندلقُ من صدرهِ والطرَفَيْن،

يستريحُ، بلا حراكٍ، على البيضةِ اللامرئيّة.

بجناحَيْنِ مرفرفَيْنِ، ينسدلُ ريشُ ذَنَبهِ على حافّةِ الكتابِ،

مُحلِّقاً، لبرهةٍ، كأنهُ يأتي بحشرةِ فكرٍ وصورٍ،

مختفياً في حريرِ الهواءِ، حالما يُقلِعُ.

مرئيٌّ، مجدَّداً، عندما يستريحُ على الجمرِ،

مُسَوِّياً ريشَهُ بمنقارهِ.

آرسينويه

سألفُّ، ألفّ أشرطةِ القماشِ هذه

على عينيّ حبيبتي، وحولَ روحِها،

باللون البني، وبالحبرِ شبْه الفاني.

سوفَ أدوِّنُ على أشرطةِ ردائي،

إشاراتٍ سرّيّةً..

سوف ألفُّها مثلَ مناغاةٍ

حولَ روحِ حبيبتي.

آهٍ، من مراهمَ لا تُسفَح أبداً!

آهٍ، من أشرطةٍ رفيعةٍ

ملفوفةٍ، دورةً بعد دورةٍ، بغزْلٍ بهيّ!

ألا تشبهينَ شرنقةً،

وهي تتدلّى بين شجيرات الورد!،

أنتِ ذاتَ العينينِ الكبيرتينِ اللتين وهبتُكِ إيّاهما..

أنتِ ذاتَ الوجهِ النقيّ.

انتصار المَنِيّة

ثلاثةُ فرسانٍ خرجوا..

رفعوا إلى صهوةِ جيادهم ثلاثَ حوريّاتٍ.

ثلاثةُ فرسانٍ امتطوا صهوةَ جيادٍ، حملوا على كلِّ قفّازةٍ نسراً،

من يقطعُ؟ من يربطُ؟

في وادٍ منعزلٍ مليءٍ بالغابةِ،

التقوا، في ستةِ توابيتَ مفتوحةٍ،

بجثثِ نساءٍ ثلاثٍ، بجثثِ رجالٍ ثلاثةٍ، مكفَّنةٍ،

بعزلةِ الوادي المليءِ بالغابةِ

حيث أُغريَت إليها نسورُهم،

لكنّ البومةَ تحملقُ، من الأحراجِ،

بمُقَلٍ صفراءَ

لــم تكنِ العدوى قد وصلتْ، بعدُ، إلى الوادي.

من يقطعُ؟ من يربطُ؟

في كلّ مكانٍ من هذا الوادي، كانت العدوى حاضرةً:

في موتِ وحيدِ القرنِ،

في الفرجةِ على جثامينَ بهيَّةٍ،

في تدنيسِ العذراءِ،

أمامَ نظراتِ البومةِ المسحورةِ الصفراءِ،

تابعت السيداتُ والسادةُ الركوبَ

باردين في أرحامهم، متصلِّبينَ في أعضائهم.

وما جرى بينَهم

لا أودُّ الإفصاحَ عنهُ،

إذ إنَّ كلًّا منهم أدرى بنفسه وبما فعل

غيرَ أنهُ كانَ في المدينةِ،

ثلاثةُ متسوِّلين، يعرفهُم الجميعُ

ثلاثُ متسوِّلاتٍ، يعرفهُنّ الجميعُ،

من يقطعُ؟ من يربطُ؟

في ستّةِ توابيتَ، انتظرَ المكنونُ

كما في كفنٍ من أملٍ وخوفٍ،

مُدَّخِراً انتظارهُ، فحسب،

كما في كفنٍ من أملٍ وخوفٍ،

لـم يُبصرْ هؤلاءُ رحلةَ السيِّداتِ والسادة.

لم يبصروا فِرارَ النسورِ

أو الوادي بغابتهِ،

لم يبصروا سِوى الغيومَ، في السماءِ المشرقةِ.

حجرُ المرارةِ الأملس

كيف دخلت، عبرَ البوابةِ الضيِّقةِ،

الصناديقُ الخشِنةُ تلك، ذواتُ الأسقفِ المقوَّسةِ، إلى دهماء آلاباستر[1]

مدخلٌ: بلا مخرجٌ..

ويوصدُ الحارسُ البابَ.

في يومٍ صيفيٍّ، بعد الظهيرةِ، بين الثالثةِ والسابعةِ،

الوقتُ الأمثلُ لعينيكِ الواهنتينِ؛

إذ يظهرُ منه ما كان

يكمنُ على القاعِ.. تَتَّقدُ الخلايا الصغيرةُ،

العُصَيّاتُ البصريةُ، من الضوءِ الذي التقطوهُ،

مرّةً، عبرَ غشاوةِ النوافذِ العمياءِ،

(1) آلاباستر: حجر كلسيّ نصف شفّاف، يشبه المرمر، يُستعمَل للزينة.

ناقلةً، من ذاكرةِ الحجرِ، إلى الحياةِ، ما وددتَ رؤيتَه:

حمامتَيْن تحتسيانِ ماءَ الحياةِ من قِدْرٍ

وهذا الحواريُّ الذي صورَتهُ لنسرٍ

مستحمٍّ في عشقكِ مع زرقةٍ ليليةٍ،

أو ناهضٍ من الحمامِ نحوَ قبابٍ، أبداً، خضراءَ،

باطنَ عينيكِ الذي بُعثت الحياةُ فيه، رحمُ روحكِ

من صوَرٍ، لم تُنجَبْ، أبداً، رغبةُ عيشٍ

منطفئة، في البرهةِ ذاتها، إذ يُفتحُ البابُ، مُجَدَّداً،

لنورنا.

توسكانا

كذلك، شرودُ الذهنِ إقليمٌ مترامي الأطرافِ،

حقلٌ يحُرَثُ بالثيرانِ، وكلبٌ ينبحُ على

لا أحدٍ

مزرعةٌ، بالقشِّ مغطّاةٌ.

بالإمكانِ رؤيةُ أسطوانةِ البئرِ فيها، من بعيدٍ،

منحدراتٌ زرقاءُ بصنوبريّاتِ البينيا، والسرو هنا وهناك،

كخلفيّةٍ لعذراءَ ما غائبة

برفقةِ يوحنّا غائبٍ، ويسوعٍ طفلٍ

يسعى لالتقاطِ الثديِ بتلويحةٍ تنمّ عن خواءٍ،

لأنَّ لا أحد منهم يُرى. ألم يكونوا

في شفافيّةِ المساءِ ذاتهِ، التي كادتْ أنْ تكونَ لهمْ

عيوناً محدّقةً إلى حقولٍ عذراءَ واجمةٍ،

مذ أن رحلتْ كلُّ الطيورِ المرئيّةِ

وحدها، الطيورُ اللامرئيّةُ لم تزلْ تُسمعُ، إذ ترحلُ سرباً ســرباً،

في اللــيل.

رأسٌ على رمح

أدخل قطعتكَ النقديةَ النحاسيةَ في فمي، وامضِ في سبيلك..

سوفَ لن أبتلعَها،

سوفَ لن أبصقَها إلى الخارج.

امضِ في سبيلك، واتركني وحيداً مع دودتي؛

فما ابتلعتُه لم يكن سوى هاتين العينين،

غيرَ أنَّ كلَّ قطعةٍ منهما لا تساوي أكثرَ من قرشين،

وعلاوةً على ذلك، ليس بوسعي صرف قروشك الخمسة..

ليس بوسعي الاحتفاظُ بها.. خذها،

وخذ هاتين اللؤلؤتَيْن الميِّتتَيْن بلا ثمنٍ،

أو هذه السلسلة،

«رقعةُ الشاطئ هذه من شجرِ نخيل»

هذا القفصُ من عظامِ صدرٍ.. هذا الأثرُ المقدَّسُ من مدينة.

رأسٌ على سورِ المدينةِ، رأسٌ محملقٌ، بلا عينَيْن.

رأسٌ على مقبضِ بوقك.. رأسٌ تركيٌّ.. رأسٌ زنجيٌّ.

على الأرجح، إنكَ لستَ الوحيدَ الذي يتصاعدُ الدخانُ منه، على وجهِ الأرضِ!

عينان مَيِّتـتان

عينان ميِّتــتان مثل مَغيَّبَيْنِ،

بجفنَيْنِ من ربيعٍ وخريف،

وحاجبَيْنِ كأعنابٍ برّيّةٍ

ملتفَّةٍ حولَ الجبهةِ

متفرِّعة على الصدغين...

حمراءَ كألق غادةٍ

وثمارِ الغبــيراءِ البهيّةِ كمثلِ أكاليل ثعالبَ، زرقاء

مثل انعكاساتٍ من حاجبِ القبَّعةِ،

يخلدُ للراحةِ بحاجزٍ مهشَّمٍ،

بمجذافٍ مُعْوَجٍّ، مُهَشَّمٍ

بتصدُّعٍ فردوسيٍّ في اللحيةِ!

تطبقُ الأوراقُ جفونها على عينيه..

تطنُّ في ثرى أذنيه.. هل ولج قطارٌ

رأسه؟

يدندنُ ويدندنُ، يدورُ ويدورُ

كخنفساءٍ، فكرتها الوحيدةُ

أن يُصهرَ الأنفُ والثغرُ معاً!

لِمَ هما، دوماً، مفترقَيْن،

حتى دونَ أن يعلمَ أحدٌ منهُما شيئاً عَن الآخر

كالقطرة ورأس اللسان!؟ تَصوَّرْ

أن تُمحى الملامح، بيدٍ متحسِّسةٍ،

مزيلةً قداسةَ الوجهِ

لتكونَ- كَما هي- حجراً رَمادياً

مبلّلاً بالمطرِ، ماءً راكدةً في الشروخ،

فقط، في المستنقعِ، جمجمةٌ صلعاءُ

وشجيرةُ عنّــابٍ،

دون صلة بين حوضٍ وعظامٍ

أو هدفٍ أو معنى.

هذه الجدران

هذه الجدرانُ لا تقي مِن أيِّ شيءٍ؛

إذ ليسَ للجدرانِ سرٌّ تُخفيه.

هنا، لا شيءَ يُرى.

هنا، الأصداءُ كلُّها ميّتةٌ

في المطرِ الغزيرِ، في المطرِ الغزيرِ،

هنا الينابيعُ كلُّها تَفيضُ

ليسَ ثمّةَ عطشٌ غيرُ مرتوٍ،

وليسَ عندَ الغيمِ برقٌ آخر

سوى دويّ مطرٍ خاوٍ، على الأوراق.

هنا، الجدرانُ لا تقي من أيِّ شيءٍ.

هنا، كلُّ شيءٍ مخفَّفُ التركيزِ، واهنٌ

الذباب الأخير، وحسب، بعنفوانٍ، يحيا حياةَ الدمى.

جمجمة يوريك

جمجمةُ يوريك يومَ الفناء:

أناسٌ بؤساءٌ، بلا أرجلٍ أو أذرعٍ،

يزحفون.

أرجلٌ وأذرعٌ سيرُها غريبٌ،

بلا جسدٍ، أو أجسادٌ بلا رؤوس

أو رؤوسٌ بجسدَيْن

أو جماجمُ منفردةٌ

تخطو، بصخَبٍ، على سِنّين

أو يدان تحبوان إلى الأمام بلا جسدٍ

أو سنَّانِ يخشخشان.

يسعى أحدٌ ما- لانعدامِ اللسان-

إلى إثبات براءتهِ منهما.

وفوقَ هذا كلّه رمادٌ،

كما من علبة فلفلٍ كبيرةٍ

غلطةُ مَنْ هي؟

سَلِ التكنوقراطي،

يا من تحمل عمودكَ الفقري،

إنها وصيةُ

القلبِ الذي تَخّلَف.

من
ديوان «بارتيتور»
(1955)

لقد شربتُ ذهباً

لقد شربتُ ذهباً

ما هو بذهبٍ،

مذوّباً في ماءٍ،

ما كان بماءٍ،

لكنه الحمضُ

الذي يُشَبِعني.

سمعتُ بأن الخيميائيين يقولون

بأنه السمّ الأشدُّ فتكاً.

بوسعي أن أضمن أنه هكذا،

حينما يموتُ المرءُ بسببه.

لكن، حتى الحياة..

تلك الحبيباتُ الذهبِية المذابة

في الأنبوبِ المهتــزِّ

الذي هو جسدي،

تمرُّ عبر فؤادي

كُنَدف ثلجٍ..

تخبو وتتوهَّجُ، على الماءِ الباطنيّ من رؤيتي،

كقشاراتٍ من ذهبٍ.

من ديوان
«في الخريف»
(1951)

البحر

على الشاطئِ، وقفوا بأرديةِ الصيفِ، وفكَّروا:

أليسَ البحرُ شاعرَ الألفِ قصيدةٍ،

ورسّامَ الألفِ لوحة؟

انظرْ كيف يتّشحُ بمشهدٍ من شعاعِ القمر،

يدندنُ مناغاةً،

طارحاً نغمةً مبتورةً على صخرةٍ مصقولةٍ!

لكنّ البحرَ غنّى أغنيةً واحدة،

كتبَ، من الشرقِ إلى الغربِ،

قصيدةً مُغَبّشة،

قصيدةً عن كلِّ شيءٍ: كان البحرُ،

عمّا هو، وعمّا سيكون.

لأنّ الناسَ كثرٌ،

والبحر وحيد.

من البحر الأسود

السماءُ نائيةٌ جدّاً..

لم أرَها،

لكنني رأيتُ الجحيم

إنه دوماً في الجوار..

والأرضُ، تلك الموبوءةُ،

ما من جمالٍ مدمِّرٍ لا تحمل ملامحه!

حقّاً،

للمرءِ نارٌ أو بردٌ في الأردافِ،

وبالعكس، في القِبَل،

إنه مُطَارَدٌ يُطارِدُ،

ومطارِد يُطارَدُ.

الحمارُ، الجزرةُ، البرّامةُ، الخيطُ.

أن تكون جَلْداً في النارِ والبردِ..

أن تكونَ جَلْداً، فقط، عبر كونكَ هشّاً.

عسرٌ يخلقُ دهاءً،

وستمسي كقشرةِ جوزِ القدرِ

وكورقةِ دِلْبٍ غيرَ مدوَّنةٍ، مرميّةٍ على شاطئٍ

لتجفَّ على الرملِ.

لم يكن حليفاً ولا معادياً

للغريب.

بجّلْ حواسَّ جسدِك،

وأجسامهم التي تَهبُ جسدَك أجزاءه المكمّلة:

الجنسُ وحدهُ قابلٌ للنموِّ، عندكَ وعندَهم.

البذرةُ التي طمَرَتْها الآلهة

قد تُعطي، حينئذٍ، برعماً لزهرةٍ غير أنانيّة.

لأنه هناكَ، فقط، يكمنُ صدعٌ،

شرخٌ في الحائطِ:

بيراموس، وتسبي، فيليمون، وباوسيس.

لا تبتسمْ للخرافةِ البسيطةِ، ولا حتى للسطحيّةِ منها؛

لأنها، في أكثرِ البحارِ سواداً، قد تصبحُ لك.

اللاوعيُ حكمةٌ،

حتى لو كنتَ منشغلاً به، فلا تفسِّره.

أطِعْ!

تبني الروحُ، على غرارِ النباتِ، أوراقاً جديدة،

في الحلمِ والنـزوة.

لا تترجمْ لغةً حيّةً إلى أخرى ميِّتة.

بجّلْ غموضَ جسدِ روحِكَ،

وابنِ نفسَكَ.

ما همّك من مدارِ الزهرةِ،

أو من إيماءةٍ غيرِ مصقولةٍ، ليدٍ مصقولةٍ، لاحقاً؟

تعلّمْ من ملمسِ جلدٍ حجريٍّ أعطاهُ الفنّانُ والوقتُ

لنصب «كوريّ» غير مرمَّمٍ.

لا تقلقْ لأجل الكلِّ.

خذ قطعةَ جلدٍ: حتى لو كانت من مساماتٍ حجريّةٍ؛

ففيها مداعبةٌ مخبأةٌ ،

وفي هذه المداعبة يكمن الكلُّ

فاختبِئْ في المداعبةِ:

سوفَ تنسى نفسَكَ في نفسِك؛

لأنكَ السرُّ والمعجزةُ،

فيك إلهٌ يعيشُ.

لا يخلقُ المرءُ العملَ الفنّيَ،

بل يخلقُ ذاته هو.

وينبغي على المرءِ، دوماً، أن يبدأَ من الأساسِ..

مراراً وتكراراً، من الأساسِ.

الأساسُ المتينُ هو هذا الفُتات،

هذهِ اليدُ المبتورةُ، هذا الوجهُ المهشَّم الذي

لن يلتحمَ في كماله، أبداً،

إلا من الداخلِ.

إلا عبر الأصلِ، الذي هو واحدٌ، الذي هو الصائغُ

المتّحدُ...

على المرءِ أن يمتلكَ الشجاعةَ ليغيّر الوصايا

التي تقولُ بأنَّ الشمسَ لا تدورُ حولَ الأرضِ،

وبأنَّ الدمَ لا يفرحُ، ولا يحزنُ، بلا خجلٍ

وبأنَّ النبيذَ غيرُ منعشٍ للقلبِ،

وبأنَّ متعةَ الجسدِ ليست متعةَ الروحِ،

وبأنَّ الروحَ والجسدَ ليسا الداخلَ والخارجَ

وفي الحقيقةِ، هما الشيءُ ذاته.

مرثيّة

من باطني، أحضرتُ المواساةَ دوماً؛

حيثُ يكمنُ، دوماً، ماءٌ باردٌ لعطشي.

حياتي المنــزويةُ النافرةُ

كان بودّي استبدالُها بحياةِ الأطفالِ السعداءِ، بحياتهم الراقصةِ بجوارِ البحرِ. البحرُ بتلألؤ فناءٍ وألقِ قمرٍ، كان بودّي استبدالُهُ، إذ يحيا المرءُ صيفاً واحداً، فالذي يرفرفُ يرفرفُ، والذي يعلو يعلو،

والذي يتخفّى سيتخفّى.

ليس في وسع أحدٍ التغيــيرُ.

النافرُ هو من يريدُ أن يكونَ أحداً آخرَ.

النافرُ هو من يريدُ أن يكونَ كلَّ شيءٍ:

لَكَمْ متحجِّراً أضحى فرارهُ!

ستنمو الطحالبُ على الحممِ.

لَكَمْ أضحى تحجُّره ساخناً!

صخرةٌ هو في مناعته

يستشعرُ عطشاً، ندى محيّاهُ،

لا ينسى، أبداً، أنه قد سالَ يوماً.

لا ينسى، أبداً، باطنَ الأرضِ.

ما وهَبَتْهُ اللحظةُ والعمرُ

لا يمكنُ لأحدٍ أن ينتزعهُ منّا.

هكذا، عاشَ وفَكَّرَ الأوّلون.

حقاً.. ولا يستطيعُ أحدٌ أن يُعتِقنا ممّا

كانَ للحياةِ واللحظةِ أن تهبانا.

كأنصافِ أحجارِ كريمةٍ موزَّعةٍ،

في جوِّ حياةٍ، طبقةً فوقَ طبقة.

هي ذي نظراتٌ برّاقةٌ لجبلٍ،

كتلك التي وهبَتْها الحياةُ لنا،

الحياةُ التي لم تمنَحْ، بالمقابل، أنصافَ اللحظاتِ تلك:

بين زنابق الماء

كتبتُ مقدِّمةً، لِما كنتُ بصددِ

قولهِ،

غيرَ أنَّي شطبتُها، لكنني أرغبُ،

قبلَ أن تُطبِقَ العتمةُ فوقي،

أنْ يكونَ

آخرُ ما يُلمحُ مني،

قبضةٌ بين زنابقِ الماءِ،

وآخِرُ ما يسُمعُ مني، كلماتٌ من فقاقيعَ

تنبعثُ من القرارْ.

حُلم واقعي

عن الإنسانِ الذي تاقَ إلى الحياةِ،

سارَ على دربٍ طويلٍ ملتوٍ،

وعثرَ على جثّةٍ.

آهٍ، يا الجثّةُ في داخلي،

هأنذا أتأَملُ يديَّ:

يدُ فانٍ في يدِ حيٍّ!

أحسُّ بطعمٍ في فمي،

بطعمِ جثّة.

الليلةَ، شاهدتُ أحلاماً

مرعبةً ومعقَّدة؛

أنَّ ظهري سُلخَ لأجل خمسةٍ وعشرين كروناً،

أدفعها ثمناً لرحلتي.

وأنَّ الملِكَ قُدِّدَ

حتى لم يتبقَّ منهُ إلا يدٌ ورأس.

سُئِلَ: أأنتَ على وعيكَ؟

قال: نعم.

حملقَتِ العينانُ الكبيرتان الزرقاوان بقساوةٍ جليّةٍ،

حينما سدّدَ الجلّادُ ثلاثَ مراتٍ صوبَ الحنجرةِ،

وأصابَ القحفَ، فوق العينينِ، تماماً،

أيُّ ألمٍ وقعَ في تلكَ اللحظةِ؟!

وتدحرجت الأقحاف!

سمعتُ طقطقةَ العظامِ على شرائحَ من حجرٍ، سوداءَ.. بيضاءَ

فوقَ هذا كلِّه، حامَتْ روائحُ جثثٍ:

ليسَتْ رائحةَ لحمٍ طازجٍ، ليستْ رائحةَ نتنٍ،

ليستْ رائحةَ مقبرةٍ كذلك،

غير أنّها رائحةُ تفاهةٍ لا توصَفْ....

مذْ شرعوا بسلخي

بطلبٍ مني، لأجل خمسة وعشرين كروناً

- كنتُ قد طلبتُ خمسة وثلاثين كروناً-

لم أشعرْ بألم.

يُقالُ أنّ أحلاماً كهذهِ تنبعثُ من المعدة.

هذا الشعورُ التافهُ،

الإحساسُ بالاشمئزازِ، باللعنةِ،

بالألمِ الذي، تكاد تجده ألماً،

من عدمِ المقدرةِ على الإحساسِ بشيءٍ

من عدمِ المقدرةِ على النهوضِ من حلمٍ:

نوع ما من التقيُّؤ.

أرأيتَ أحداً تاقَ إلى الحياة؟

- نعم، رأيتُ:

كما الفضلاتُ على القِدْرِ، كما القمامةُ في الشا رعِ،

سوفَ يؤكَلُ،

وروحُه لن تسمّى روحَه، ولا حتى بروحِ

لأنّ المسؤولَ عن الجدار لا يسمح بهذا.

هنا، كنتُ مستلقياً في معسكري،

وكان أبي وأمّي يمسكانِ برأسي،

في حين كانتْ زوجتي تنحني فوقي،

رأيتُ ما تهواهُ روحي.

مسيرة

Im Winde
Klirren die Fahnen

لقد فقدتُ المقدرةَ على اللامبالاة،

المقدرةَ نفسَها على السعادةِ ـ ربّما...

نبيلٌ، شرطيٌ، دبلومٌ، دبلوماسيٌّ، إنكشاريّ الخطوطِ الخلفيّةِ!

وفَنّ الاحتمالاتِ غير موجودٍ!.

آهٍ، أيَّتها اللامبالاةُ الرائعة، خارجاً!

آهٍ، أيّتها الخيالاتُ اللامبالية، خارجاً!

بكلِّ راياتكِ الساذجةِ، أو المتعجرفةِ، ودجاجكِ البرّيّ

ثمّة، خارج في الريحِ خارجاً.

تاهَ الأخوةُ، دهراً، في غرفةِ الغازِ.

الآنَ، يجرّ «موفيتز» مرَضَهُ الأخيرَ عَبْرَ مخيّمِ العبوديّةِ،

وأنا هائمٌ بحقائقنا المهشَّمةِ الوجهِ

في الحرّيّةِ، في المساواةِ، خارجاً.

آهٍ، أيّتها اللامبالاةُ الرائعةُ، خارجاً!

آهٍ، أيّتها الخيالاتُ اللامباليةُ، خارجاً،

بكلّ ويلاتكِ وأفاريزكِ الممزَّقة بالرصاص..

غسيلُنا القذِرُ يرفرفُ منكَّساً، خارجاً!

مرّةً صرختُ في سريرتي: لا أريدُ أن أموتَ!

لا أريدُ أن أموتَ! ولا أحتملُ العيشَ.. بيْدَ أنّ هذا كانَ منذ أمدٍ بعيدٍ.

والآن، استدركتُ كلمتي، واستعَدْتُها قسراً:

أريدُ أن أموتَ؛ أي بوسعي أن أحيا خارجاً.

صُدْفةٌ عابرةٌ

في زاويةِ الشارعِ، في ردهةِ القطارِ،

وجهٌ، نظراتٌ متبادَلةٌ قسراً،

منظرٌ طبيعيٌّ أيضاً، تجوالٌ،

ليلةٌ لم تنتهِ أو تبدأ، شيءٌ ما مأمول

لكن، دوماً، غيرُ مكتملٍ،

الشعورُ بحضورِ أحدٍ ما في الغرفةِ المجاورةِ:

غِنى الحياةِ بالفرصِ

مبعوثة من زيفِ موتِ الذاكرةِ

إلى زيفِ حياةِ الذاكرةِ، غير موصَلَةٍ،

بَعْدُ، من عبقٍ، من نغمةٍ شبيهة

وهي غيرُ مُسْتَغلَّة.

من هذا الشيء، لن يتسنّى لأحدٍ أنْ يعتقَنا.

بلا دعوةٍ يظهرون، أكثر عرياً،

في لاواقعيةِ عتمةِ القَمَرَةِ،

ولأنهم كانوا بلا مأوى

في أعوام الشرّ المهلكِ:

هذا ما يولّد الغيرة..

هذا ما يولّد الحنين.

من ديوان

«ليلة في أوتاجاك»

(1945)

إلى فنّ اللاممكن

إلى فنِ اللاممكنِ،

أنتسبُ

لأكونَ مؤمناً كذا،

من إيمانٍ يُدعى زندقةً،أعرف

أننا نقلقُ لكلّ ممكنٍ

فدعني أكنْ، وقتئذٍ، بلا قلقٍ

لأجلِ الممكنِ واللاممكنِ.

لهذا، يحملُ يوحنا المعمدان رأسَه، في الأيقونات،

على أكتافٍ عريضة.

وفي الوقتِ ذاتهِ، يحملهُ على طبقٍ

تصفُ الضحيّة نفسها بالمضحِّيةِ!

لهذا أنسبُ نفسي

إلى فنِّ اللاممكنِ

بين الإحساسِ بالحياةِ والتدميرِ الذاتي،

في الآنِ ذاتهِ.

جَـلّاد

ما الذي ستفعلهُ بذراعيَّ؟

اقطعِ الأولى..

اقطعِ الثانية..

عينايَ تبصرانك.

اغتصبتني!؟

لا أتذكّرُ هذا!

اعتقدتُ أنّ هذا غريبٌ فحسب.

ستقطعُ، الآن، قدمَيّ:

إحداهما أوَّلاً،

والأخرى لاحقاً.

وسترى عينيّ،

ستـرى أن عينـيّ حَيّتان

ستـرى أنَّ العيونَ حَيّةٌ.

اقطعْ في الأعلى نحو الفخذِ –

ترَ أنّ عينيَّ لا تزالان حَيَّتين.

نعم،

ما قولُك، يا جلادُ:

ألا يهَيِّجُ هذا نشوةً فيك؟

خـمسُ مرّات

رأيتُ، خمسَ مرّاتٍ، النجمةَ..

في المرّةِ السادسةِ، أطلَّ القمرُ من بين السحابِ.

لم أتراجعْ..

طعَنَني،

بَيْدَ أنّي تجنَّبْتهُ،

حارفاً جسدي؛

لذا تقرأُ هذا.

إيل سونات

لا.. عالَمُ البشرِ

ليس لمثلي!

أينَ أتوجُّه؟

ليسَ إلى إلههم،

ببهائهِ، وحبالِ نواقيسِهِ

التي تسحبُها كما لو أنها رحمةٌ وطمأنينةٌ

راحةٌ.

سأنكفئُ داخلاً

من أجلِ أحبابيَ القلائل.

مدنٌ كبيرةٌ، ووعيٌ جائر!

الرؤية تكمن في أصقاعٍ أخرى

لا توجد- من ثَمَّ- في أيِّ مكانٍ.

ثمّةَ فنّ بناءٍ واحدٍ، فحسب:

الخلايا الداخلية.

الحسابُ المضاعف

عيونٌ غريبةٌ وهَبْتَني إياها، يا الله!

لا أعرفُ لها اسماً

كي أشاهدكَ

هكذا أنتَ، يابن آدم:

ما لا يوجدُ، ينقصكَ

وما ينقصُكَ- بالطبعِ- موجودٌ!

وهذا ليس بلعبةٍ لدلالاتِ الألفاظِ،

إنما شيءٌ من ذاكَ القبيلِ.

آهٍ، يا الخرابُ المكتنــزُ بالزينةِ!

آهٍ، يا الخرابُ، يا جرن التعميدِ والحكمةِ،

المكتظِّ بالنظراتِ المُضحّى بها، زينةَ الخراب،

شمعةَ الخراب المتأجِّجة

تحتَ قبّةِ الخرابِ المحمولةِ

على عواميدَ عظيمةٍ، كأنغامِ الأورغنِ،

في مُهرٍ، حيثُ تحلُّ الذَبذَباتُ محلَّ بعضها..

شبابيكُ مصبوغةٌ بضوءِ النهارِ،

بألوانٍ تحلُّ محلَّ بعضها..

صلاةٌ من كلماتٍ تحلّ محلَّ بعضها..

وثائقُ، سببُها يُبطِلُ مفعولها.

السنُّ بالسنِّ،

بالتساوي! آهٍ أيّتها الكاتدرائيةُ!

التي تفني نفسها:

رؤية ورؤية أخرى مناقضة!

مجال التنازلِ لا التهوُّر.

أن ترى نفسَك

أن ترى نفَسكَ في الآخرين:

شروطَك

نقائصَك

وعيوبَك

إنسانيّتَك

أن تكونَ اجتماعياً بالقلب،

يا اجتماعياً بالرأس!

القلبُ ليس إحساسَ اللحظةِ،

بل إنه كلُّ ما يدوم.

القلب ليس مؤشِّراً آنيّاً.

آهٍ، يا منقِّبَ الآثار!

بعد انتشالي من الترابِ،

ستنظرُ إلى هذه الجمجمةِ

إلى صفِّ الأسنانِ المحشوّةِ بالأملجامِ والذهبِ،

غيرَ أنَّ

الترابَ سيكونُ دماغاً لي،

أفكاري التي كانت..

لن تراها.

والآن، أودُّ إخبارَكَ بما تعنيه أسناني،

فمي الفاغر،

وبسببِ عثورِك عليّ هكذا،

إلا أني أُحجمُ عن هذا..

لا أستطيع.

صـــرير

لا أدري أينَ الوقوف،

بينَ الذين يلومونني

وبَيني التي تلومُهم!

غيرَ أنـّي أُدركُ شيئاً:

أنْ لا ذنبَ لي، ولا ذنبَ لهم؛

لهذا نحن متنافرون وسواسيةٌ!

لكني أعرف، أيضاً،

أنّ لي ولهم، في الخفاءِ، ذنْباً،

ثم يبقى الأمرُ معلَّقاً بالأغلبيةِ، فحسبْ.

امسكيني

امسكيني.. أو سأهرب.

امسكيني.. أو سأهرب.

ردّيني إلى أوريليا، صوبَ مسكني.

خارجَ السورِ خطوتُ.

آهٍ، أبقيني.. ها قد هربتُ.

قوديني، ثانيةً، إلى جنانِ الوردِ،

إلى جموعِ يرقاتِ الحديقة.

اسمي بترونيا.

أبقيني.. ها قد هربتُ.

استدعيني مجدَّداً إلى البيتِ،

إلى دار تيودوتينس،

إلى راعي داري فيتاليو.

أبقيني.. ها قد هربت.

يا آلهة العالم السفليِّ!

هنا، تحت السورِ، ترقدُ الحسناءُ سكونديلا،

التي انتُزِعت من أبوَيْها

مخلِّفةً لهم الأشجانَ؛

إذْ كانت فاتنةً

ذاتَ عبقٍ زكيٍّ،

تصبو دوماً

إلى ملذّاتِ الحياة.

أبقيني.. ها قد هربت.

يا آلهةَ العالمِ السفليّ!

أنا نيمفيديا البائسُ،

الذي عاش عاماً،

ثمانيةَ أشهرٍ،

عشرينَ يوماً، ليلةً

وأربعَ ساعاتٍ.

كم هو محزنٌ أن تكسرَ

ملائكةُ الموتِ السيقانَ الهشّة!

امسكيني.. ها قد هربت.

امسكيني.. أو سأهرب،

يا آلهةَ العالمِ السفليّ!

حيوان.. غريزة

في هذه المدينةِ الإغريقيةِ نيابوليس.

في هذه الحديقةِ المغبرّةِ من النخلاتِ السقيمةِ،

فوقَ البحرِ الداكنِ

المكتظِّ بالألوانِ الخفيّة، وتحطُّم السفنِ

متحفُ العالمِ الصامتِ

الأخطبوطُ، متخفٍّ، بلا حراك،

في الزاويةِ السفلى لزجاجِ الحوضِ،

في ألوانِ الخلفيّةِ،

بعيونٍ منتصبةٍ، قنّاصة.

يتصاعدُ تيّارٌ متوازٍ من الفقاقيع

وستُّ.. سبعُ حبّاراتٍ راقصاتٍ في الأعلى،

تتلألأ جوانبها بأغشيةِ غطسٍ متماوجةٍ،

تحت السطحِ المضيءِ.

طيورُ أعماقِ البحرِ، فراشاتُ أعماقِ البحرِ،

بأذرعِها المضمومةِ إلى شدقِ صَدَفةٍ،

ترقصُ نحو الأمامِ كلُّها، في الاتِّجاهِ نفسهِ

صاعدةً، هابطةً، بأسرابٍ متتابعةٍ،

بعيونٍ نصفِ مغمضةٍ منتشيةٍ.

حباراتٌ ترفرفُ بأغشيةِ سباحةٍ مجعَّدة،

مستبدِلةً، دوماً، أمكنتَها مع مثيلاتِها،

صاعدةً، هابطةً ـ أعرف اللعبةَ:

إنها تلعبُ لعبةَ التيّارِ، تيّار

عمقِ البحرِ، تيّارٍ معاكسٍ قويٍّ، يُـمَكّنها من الرفرفة

في أماكنِها،

فوقَ العمقِ المتحايل.

صـورٌ من الذاكرة

ليسَ يونانَ البطولةِ،

إنما يونان أجراسِ الحميرِ و جلاجلِ الأغنامِ

والمياهِ النادرةِ.

امرأةٌ في يدها مغزلٌ

جالسة، بالعرضِ، على ظهرِ حمارٍ،

متأرجحةَ الساقين حسبَ إيقاعِ المشي،

تغزلُ مصيراً.

حتى أبولون

رعى يوماً ما، كذلك، قطعاناً.

القرويةُ التي حظيت بتوصيلة، شكرتْ، بصمتٍ، ضامّةً قبضتَها إلى صدرِها

مضيفة المطعمِ الريفيّ التي تفاخرتْ بثروتها:

ستّمئةِ شجرةِ زيتونٍ،

ونبع.

في معبدِ اسكليبيوس،

وبجوارِ صورةِ بانايان، عُرضتْ نفسُ الصور المنذورة،

بأطرافٍ مكتملة.

تصوِّر العذراء ذاتَها،

مسيحيّةً، وما قبلَ مسيحيّة،

في هيئةٍ مسيحيّة، وهيئاتٍ أخرى متبدِّلة.

ربّةُ البحرِ المتوسِّط

أصداءُ إبيداوروس،

ليست هي الوحيدة.

ليالٍ روميّة

سماءٌ صارمةٌ تزدريني.

أرضٌ صارمةٌ،

تحت أرضٍ صارمة!

تحت سماءِ بانتيون،

يصرخ قطٌّ، عليلاً، من العشقِ.

لقد رأيت أمسياتٍ كمشاهدَ مسرحيةٍ،

كواليسُها أزقّةٌ، وأناسُها أقنعةٌ،

تؤدّي دَوراً في لعبةٍ للظلِّ أمامَ أنوارِ الحاناتِ

مُلَوِّحةً بسيوفٍ وهميّة،

بجيوشٍ بارونية وهميّة، وطابورُ فقراء الشعب الذي يضجّ بمُتَلَقّي الحساء من المطبخ العجائبي

بين جدران كفيرينال باستيون،[1] وضبابِ الشتاءِ القاسي

الكثِّ في تيبر..

في مكان ما من هذه المدينة،

يكمن الحجرُ الخطرُ

الذي ينهارُ تحتَ القدمِ

الذي يُتوقّعُ انهياره تحت خطى أحدِهم،

فيهوي، بلا حولٍ، إلى أرضِ الأشكالِ المصغَّرة.

في مكانٍ ما من الليلِ،

تقف «سوراكت» البيضاء مُدَثَّرة بالثلج.

المياهُ الغابرةُ ترنُّ

أيضاً، تمهَّلتُ أرنو إلى قطٍّ

واسعِ العينين، يتجوّل، للمرّةِ الأولى، على وجه الأرض

قد ولِد توّاً من حفرة المجاري القريبة

(1) كفيرينال باستبون: سبعة تلالٍ في روما.

متحفِّزاً، تماماً، كي يلهو بقطعةِ لحمٍ متلَفةٍ، كما بجرذٍ

غير مدركٍ للخطرِ الآتي من الكلابِ والعربات.

أظن أنك أكثرُ معرفةً مني بالعالم السفلي.

أين ولدتَ؟ في نفقِ مجرورٍ قذرٍ،

أو في غرفةٍ شبهِ مُهَدَّمةٍ،

حيث لاتزالُ تقبعُ أفروديتُ أخرى من المرمرِ

غيرُ مكتشَفةٍ

محجوبة عن الأنظار، لأكثر من ألفِ عام.

أكان، من رحمِها، مسقطُك أنت؟

تحت سماءِ بانتيون،

يصرخُ قطٌّ، عليلاً، من العشق.

أطالبُ، لكافةِ القططِ،

بعالمٍ سفليٍّ صارم.

«لاأوكون»[1]

كنتُ يوماً ما- بلا ريبٍ- تمثالاً آبِداً. أتذكّرُ أنـّي ابتسمتُ، لكني لا أتذكّر لماذا! سرتُ في شارعِ الملك طالباً جديداً، أضحكُ بلا سببٍ، أو بسبب قدومي باكراً؛ لانهماكي بشدّ بضعِ ألجمةٍ، تلاشت شيئاً فشيئاً؛ لأني كنت من مرمرٍ أو من برونزٍ؛ لسقوطي وبقائي مستلقياً على الظهرِ.. أبتسمُ لكوني أستلقي، هناك، مبتسماً؛ لسقوط الأرض على ابتسامتي حتى أمست، أكثر فأكثر، ابتسامةً بحدِّ ذاتِها. كُنتُ، بسبب هزّةٍ أرضيةٍ أو اقتحامٍ بربريّ، قد ابتسمتُ، وهَوَيْت، وهَوَيْت، وابتسمت. مجتازاً، هكذا، مختلفَ مراحل دراستي: «فاون» و«نيمف»، ورجلاً وامرأةً وحاكماً هيلينياً ومختلفَ الآلهة و- أخيراً- «لاأوكون»، متقلِّباً خلال محاولة الأفاعي خنقي بأذرع، هي- بحَدّ ذاتها- أفاعٍ. أمّا بخصوص أولادي فقد كانوا نسخاً مصغَّرةً عني.

في البدايةِ، حُظيَتْ هذه المجموعةُ بالإعجابِ، إلا أنه اعتُقدَ، لاحقاً، بأنها رديئةٌ، واستقرَّ الرأي أخيراً، بشكلٍ حاسمٍ، على أنني، في عليائي، مصنوعٌ من حوالي عامَ مئةِ بعد ميلاد المسيح، خلال عصرِ الانحطاطِ. ما لم يخطرْ

(1) لاأوكون: كاهن أبولون، حاول منع الطرواديين من إدخال الحصان إلى مدينة طروادة، فقتلته أفعى عملاقة مع نجلَيْه. من الميثولوجيا اليونانية.

على بالٍ هو أني تلوّيت وتعذَّبت بالقدْرِ ذاتهِ، وما همَّ أنْ أكونَ مصنوعاً سابقاً أو لاحقاً.. ما همَّ إن ابتسمتُ أو زممتُ فمي بألمٍ وتَحدٍّ؛ فإنّ لكلِّ شيءٍ بداية.

أنا كوروس أضحى لاأوكون، فالابتسامةُ والعذابُ واقعيان، سواء أكان هذا إيجابياً أم كان سلبياً، سواء أعاش المرء خمسمئةَ عامٍ

قبلَ مولده، أم عاش ثمانمئةَ عامٍ بعده؛ من ثَمَّ أنا لاأوكون.. أتقلّب، دوماً، بأصلٍ مشكوكٍ فيه كما هي الحالُ في العديدِ من اللوحاتِ الكلسيةِ. في هذا، إلى حدٍ ما، قدرٌ وموتٌ، كما هو في حالِ الابتسامِ.

ياعابرَ السبيلِ! اسكبني من كلسٍ، إن كنتُ من مرمرٍ. ضعْ حولي حشوةً عازلةً، إن كنتُ من جصّ، أو انثر تراباً وأنقاضاً فوقي؛ لأبتسمَ و أتلوّى، بهدوء.

في مقبرة كنيسة ماري

منذُ أكثرَ من مئةِ عامٍ،

يخلدُ ستاغنيليوس[1] ونكاندر للراحةِ، على سريرٍ أخوي، في مقبرةِ القدّيسةِ ماريا.

يذرفُ أحدهما، بين حينٍ وآخر، دمعةً عند تذكُّرِ أيّامٍ خَلَتْ،

متباهياً، أمام الآخرِ، بأرضٍ كلاسيكية،

لم يتسنّ للأخير رؤيتُها، متفاخراً بصَلَفٍ، ناسباً أناشيده إلى ضوءِ القمرِ والبونشِ[2]، معلناً عن رغباتهِ، شارحاً غاياتهِ.

يهوي، بعدَها، في ازدراءٍ جبانٍ للذات.

يلجأ الآخرُ إلى الصمتِ، يسعى إلى التلفّتِ بعيداً،

ينتفضُ في إحدى المرّاتِ: دعني وشأني.

---

(1) ستاغنيليوس: أبو الشعر السويدي الكلاسيكي.

(2) البونش:مشروب روحي حلو الطعم.

يشيحُ بوجهِه القادحِ قبحاً،

مجدّداً، نحو التراب والديدان، في الأسفل، غارقاً في التأمُّل.

آهٍ، قلّما يشهدُ المرءُ نقيضَين!

كم سيتأججُ السعيرُ سواداً

واحمراراً؟ بوسعهِ بثُّ الذعرِ فينا. ولكن، أهو سعير؟

بعبقريةٍ وسذاجةٍ

مُعتادينِ على الوفاقِ، في سريرِ الأخوّةِ،كما في الحياةِ.

إلى بوستهوموس (بعد الممات)

بوستهوموس، أنتَ الذي في كرسيِّك الإلكتروني:

بوسعك سماعُ وشوشة الماضي الإنساني، كما بوسعِنا الاستماعُ من الحاكي ذي الاسطوانةِ القديمةِ، بثمانٍ وسبعين دورةٍ، إلى لحنِ يفاعتنا، المتنائيةِ من شبكيّةِ صوتِ الإبرةِ، من خربشةِ قِدمها، طقطقةٌ وطرطقةٌ من الخدشِ والشروخِ، أو مثلنا، في برنامجِ الراديو، على الأثيرِ، نُصغي إلى غَبشِ برنامجِ دربِ التبّانةِ .... يووووويوو- حوّل، بوستهوموس...

أتسمعني كطقطقةٍ خفيفةٍ

في صخبِ البحرِ الغابرِ؟

حيثُ عشراتُ الآلافِ من سلاسلِ العبيدِ أضحت خدشاً

وأنينُ عشرُ آلافِ مصلوبٍ على الطرقاتِ خربشة؟

كذا، يُسمعُ تأوهٌ على شكلِ سلسلةِ طقطقة:

NAETE LUMEN، VA، VA، USQUEQ VA، NAETE

يا نوري، أقبلِي، أقبلِي...!

ترانزيستور البحر، ترانزيستور الباليه! بوستهوموس!

DO YOU HEAR ME?

أتسمعني؟

الأسطوانةُ الأثريةُ علقت، علينا أن نُعينَها لترتقي إلى تلافيف العودةِ في الأسطوانةِ، هناك، حيث تتوقَّفُ وحدها، وتدورُ من جديد.

لحنٌ بشريٌ يتغلغل.

YES POSTHUMUS

I AM CLOSING DOWN NOW.

شِعْرٌ في الجوهر

أريدُ حارساً للمدخل، من الآن فصاعداً،

غيرَ أني لا أريدُ حارساً على المدخلِ!

أريدُ أن أرى الحياةَ من جميعِ نواحيها، أنْ أنظرَ في عينيِها،

لكني لا أريد أن أكون فيها،

بل أريدُ أنْ أحياها،

لا أنْ أشاهدها فحسب.

أولئكَ الذين يحيونَ من أجلِ أمرٍ عظيمٍ، سعداء.

من يفتّش عن أمرٍ عظيمٍ فحسب، بين أشياء متنوّعةٍ لا تحصى،

يصبحُ بالياً ومتعَباً مثلي،

بيدَ أنّ العشقَ المنفردَ قد يكونُ الدربَ الفسيحَ

والعشقُ، بتنوُّعهِ، قد يكونُ الدرب الضيِّق.

تخلَّ.. دربُ السعادةِ دربٌ سهلٌ.

ثم، اعتنقِ المضيَّ، عبرَ العذابِ، إلى البساطةِ.

تقوَّ، امضِ عبر محكِّ التجاربِ كما تسَمّى.

اسمي EKELUT (صبغةُ البلوطِ).

هذا الازدراءُ الذي أدعكهُ، دوماً،

لصنفٍ واحدٍ من أبطالِ السياسةِ أو من الأبطالِ الثوريِّين، والحسناواتِ على طرقِ الشاطىءِ،

حسناواتِ الدعايةِ ذواتِ العتمةِ حول العيونِ

كان بوسعيَ ذكر أسماء وأقاليم،

نجوم سينما،

ساسة تسوياتٍ..

إنما هو

تواصلٌ مع قلب الفكرةِ الإنسانيةِ

(القلبُ في أكثرِ الأحيانِ متخلفٌ)

فالحياةُ لا يمكن لها أن تكونَ تسويةً،

وأن تكون خطأً وصواباً، في آنٍ واحد،

غير أنها لا يمكن أن تُعاشَ دونَ تسويةٍ؛

إذاً، فهي خطأٌ وصوابٌ.

(3.99999)

اختصارٌ مناسبٌ لـ

(2×2)

نقصد، نفكِّر، نتنهَّد

ليسَ بوسعيَ رؤيةَ البلادِ الجنوبيةِ تلك

دون أن أرى الحمارَ، والثورَ، والخروفَ.

الدجاجاتُ مربوطةٌ، جمعاً جمعاً، من أقدامِها، مرميّةٌ على كلا طرفَي الدراجةِ الناريّةِ..

رؤوسُها نحو الأسفلِ، مشلولة، تقأقئُ بوهنٍ.

الخروفُ معدٌّ يُهوّى

مغروسٌ بسيخٍ عبر المؤخِّرةِ، والجمجمةِ

المسلوخةِ المبتسمةِ وجعاً،

على وهجِ فحمٍ يونانّيٍ

والأمعاءُ المحمَّصةُ، المحشوّةُ بالرزِ واللحمِ، بجانبها.

الثورُ أبيضُ، خائف تحت وطأةِ المحراثِ، بجوارهِ بقرةٌ،

مشاهدُ.. مُحالٌ انتهاؤها في توسكانا.

الحمارُ ينهقُ كبابِ حظيرةٍ غيرِ مزيّتٍ،

إلا أنه يمشي، برشاقة، تحت عائلةٍ بأكملها،

أو تحتَ حزمةِ أغصانٍ كبيرةٍ كالكونِ.

طيورٌ صغيرةٌ في حزمٍ، كان بوسعها أن تملأ فضاءً

بحنينِ الربيعِ.

أولئكَ الذين يغذّوننا، يكسوننا، يحملوننا

يخضعونَ لنا، قد يسامحوننا..

أولئك هم المسيحيّون الحقيقيّون.

هذا المساء.. في فاليرون

هذا المساءُ.. في فاليرون

«Des hautes glaces»

سياراتٌ تندفعُ، بجنونٍ، جيئةً وذهاباً،

على طولِ الطريقِ الساحليِّ،

والأسطولِ السادسِ متوهِّجٌ، ينعكسُ بريقِ دُررِ سلاسله

في المياهِ اللامعةِ، السوداء.

الجُمعةَ الحزينةُ..

لازال اليونانيون صائمين

أرى أنّ تلكَ السفنُ تشبهُ

نوعاً من أراجيحِ الملاهي الدوّارةِ المرصَّعةِ بالمصابيحِ،

أو مدينةَ ملاهٍ للتكنوقراطيين

مليئةً بآلاتِ لهوٍ إلكترونية،

براديو ورادار، كآلةِ جوك بوكس ،تدور باستمرار.

في الخريف

في الخريفِ،

أو في الربيعِ

وما هَمَّ!

البحرُ يتنفسُ، بصعوبةٍ، كما عهْدناه.

البحرُ مصقولٌ كالسابقِ .

الكوارثُ تُنسى بالسرعةِ ذاتِها،

فيما بعد، ومن الآن فصاعداً.

على سجّادة السماء الزرقاء

على سجّادةِ السماءِ الزرقاء،

الغيوم ألوانٌ

بخفّةِ ريشةِ الريحِ،

تغدو على الأرض ظلالاً

ينحتُ الغسقُ منها

مملكةَ هاديس[1]،

حيث تنمو زهورُ الأوركيديا البيضاء.

(1) «هاديس»: إله الموت، في المثيولوجيا الإغريقية.

رأيت زوجًا من العيون

رأيتُ زوجًا من العيونِ القاسيةِ؛

عشقتُها.

رأيتُ زوجاً من العيونِ الجميلةِ؛

عشقتُها.

رأيت زوجاً من العيونِ الأنيقةِ؛

عشقتُها.

رأيتُ زوجًا من العيونِ الدافئةِ؛

لم أنسَها أبدًا.

من ديوان
«لا أخدم أحداً»
(1945)

غياب قسريّ

في الخريفِ، حينما نقولُ وداعاً،

حينما تبقى الأبوابُ كلُّها مُشَرَّعةً

على مراعٍ بلا فحوى،

حيث يعلو العفنُ فطراً لا واقعيّاً،

حيث آثارُ دواليب مِلؤها الماءُ، في طريقها

نحو الفناءِ.

بزّاقٌ على الطريقِ،

فراشةٌ ممزَّقةٌ على الطريقِ

نحو الفناءِ،

نحو الفناءِ الذي هو وردةٌ، زالَ تورُّدُها.

الوردةُ الأصغرُ والأقبحُ.

حشراتُ الهاركرانك[1]،

أبالسةٌ حمقى

بأرجلٍ مهيضة، مترنِّحةٍ في ضياءِ القنديلِ ليلاً؛

القنديلُ نفسهُ الذي يتراقصُ مضمحلّاً.

بعيداً عن خَواءِ بحرِ الضياءِ، وبحرِ تَقاذُفِ الفكرة.

أمواجٌ طويلةٌ

ورفرفةُ رموشِ زبدٍ صامتةٍ،

بحلقاتٍ مقسَّمةٍ على حلقات

من الفناءِ، عبرَ الفناءِ، نحو الفناءِ.

جملةٌ نقيضُ جملةٍ،

(1) الهاركرانك : حشرة كبيرة على شكل بعوضة عملاقة، لا تلسع.

جملةٌ مكتملةٌ.. تغزلُ العناكبُ في هدأةِ الليلِ شِباكَها،

وتنشرُ الجداجدُ نشراً بلا معنى.

حقيقةٌ بلا فحوى

في الخريفِ.

خشخشةٌ في شعري

تقومُ الكلماتُ بواجبِها، وتبقى هناك،

يتساقطُ عليها غبارٌ أو ندى

تعصفُ الريحُ (بهم)، وتتركُ (هم)

(و) في مكانٍ آخرَ؛

فالذي سيبحثُ،

سيبحث بشكلٍ غيرِ مشترطٍ،

عن كلِّ شيءٍ ذي معنى.

في الخريفِ

كنتُ، منذُ أمدٍ بعيدٍ، أدركتُ أنَّ

الحكمةَ من الخشخشةِ هي الخشخشةُ ذاتُها

التي هي، بحدِّ ذاتِها، شيءٌ آخرُ غيرُ

الجُزَمِ المطّاطيةِ المبتلّةِ من الأوراقِ.

خطى القدمِ مشتَّتةُ البالِ عبرَ سجّادةِ عشبِ الحديقةِ

المحاكةِ من أوراقٍ، ناعمةِ الالتصاقِ

بالجُزَمِ المطاطيةِ المبتلّة، بالخطى مُشَتَّتةِ البالِ.

ضائعٌ.. تضيعُ أنت!

لا تتعجّلْ..

تمهّلْ قليلاً.

انتظرْ،

حينما تكونُ

الأبوابُ كلُّها،

في الخريفِ.

يحدثُ حينها،

بُعَيْدَ زخّةِ نهارٍ،

باستراحاتٍ متردِّدةٍ،

أن آخرَ شعاعِ شمسٍ مائلٍ

التبسَ عليَّ كشحرورِ فحمٍ

يغرّدُ من علياء شجرةٍ

لأجلِ لا شيءٍ،

لأجلِ الحنجرةِ.

أنتَ ترى

قِممَ أشجارهِ تنتصبُ قبالةَ خلفيّةِ مسرحِ السماءِ الباهتةِ

بجوارِ غيمةٍ، غيمةٍ وحيدةٍ.

والغيمةُ تسبحُ

كغيومٍ أخرياتٍ. لكن، أيضاً،

مثلَ موسمِ الذهبِ، ارتقى،

وإلى صَخَبِها سَلَفاً، في مكانٍ آخرَ.

وفي داخلِها كـ (الأغنية)،

كشيءٍ آخر، سلفاً، غير

سَكينةٍ خالدةٍ،

بلا فحوى.

غيرَ واقعيةٍ

بلا معنى. أنا

جالسٌ، هنا، أغنّي

لا أرغبُ في شيء آخرَ..

أرغبُ في طاولةٍ طويلةٍ طويلة!

أنا طاولةٌ طويلةٌ (بين أصداء المساء)..

أنا هنا.

جملةٌ نقيضُ جملةٍ

كذلك، أنت وأنا.

آهٍ، يالطاولةُ الطويلةُ الطويلة.

غيمةٌ تسبحُ في السماءِ الطليقةِ،

فوقَ علياءِ شجرةٍ

في لاوعيٍ فَرِح !

آهٍ، يا العمقُ السحيقُ في داخلي،

حيث تنعكسُ من سطحِ أحشاءِ لؤلؤةٍ سوداء،

في وعيٍ نصفِ فرحٍ

صورةً لغيمةٍ!

فهذا ليس بذاكَ الذي هو:

إنهُ شيءٌ آخر،

يكمنُ في هذا الذي يكون،

غير أنه شيءٌ آخر!

آهٍ، يا الطاولةُ الطويلةُ الطويلة

في ما وراء

ما يكمن قريباً!

في شيءٍ وراءَ القرب،

داخل شيءٍ يكمنُ هنا، وراء البُعد..

شيءٌ ليسَ هو هذا أو ذاك

في ما هو هذا أو ذاك:

ليسَ غيمةً أو صورة.

ليسَ صورةً أو صورة.

ليسَ غيمةً أو غيمة.

ليس ليس، أو أو..

بيد أن شيئاً آخرَ،

هو

كلُّ ما يوجد

شيءٌ آخر!

كلُّ ما يوجدُ

فيما هو موجود..

هو شيء آخر!

كلُّ ما يوجدُ

فيما هو موجودٌ

هو هذا الذي هو في ذاك..

هو شيء آخر!

(آهٍ، يا مناغاةَ الروحِ،

الأغنيةُ عن شيءٍ آخر!)

آهٍ، ما من رأيٍ،

ما من فكرةٍ،

ما من تناقضٍ سمحٍ.

جملةٌ نقيضُ جملةٍ، جملةٌ مكتملةٌ تصبحُ جملةً من جديد،

بلا فحوى.

حقيقةٌ بلا فحوى،

وتغزلُ العناكبُ، في هدأة الليل، شِباكها،

وتنتشرُ الجداجدُ

في الخريفِ.

من ديوان
«أغنيّة العَبّارة»
(1941)

أؤمنُ بالإنسانِ الوحيد

أؤمنُ بالإنسانِ الوحيدِ،

الذي يتجوّلُ وحيداً،

الذي لا يهرعُ ككلبٍ صوبَ رائحةِ نفسه،

الذي مثلَ ذئبٍ؛ لا يفرُّ من رائحةِ الإنسان:

إنسانٌ ونقيضُ إنسانٍ، في آنٍ واحدٍ.

كيفَ نبلغُ التشارك؟

تجنّبِ الطريقَ العلويَّ والخارجيَّ المتطرِّفَ..

ما هو قطيعٌ في الآخرين قطيعٌ فيكَ.

سرْ على الطريقِ السفليِّ، الداخليّ..

ما هو قاعٌ فيكَ هو، كذلكَ، قاعٌ في الآخرين.

صعبٌ أن تعتادَ على نفسِكَ.

صعبٌ أن تُــقلعَ عن نفسِك.

فمن يقومُ بهذا لن يُتركَ، رغمَ ذلك، وحيداً.

فمن يقومُ بهذا سوفَ يبقى، مع ذلك، دوماً، متضامناً؛

فعدمُ الانحيازِ هو السبيلُ العمليُّ الوحيدُ،

على مدارِ الوقتِ.

من ديوان
«اشْترِ أغنيّةَ الأعمى»
(1938)

ورودُ البحر

منذ أمدٍ بعيدٍ، لم نعدْ نتذكَّرُ

منْ أيّ قعرٍ نَمونا!

منذ أمدٍ بعيدٍ، لم نعدْ ندركُ

ما الغايةُ من نموِّنا!

حياتُنا: أن ننمو لأجل الوقتِ، فحسب،

لأجل البجعِ الذي يرفعُنا من عمقٍ مجهولٍ،

من عزلةٍ إلى أخرى أعلى!

غايتُنا: أن نُحلّقَ لأجلِ الفضاءِ، فحسب

فراغاً إثْرَ فراغٍ، مليئاً

بمساماتٍ مندفعةٍ خلفَ تيّارٍ مجهول.

أن نسموَ من قعرٍ مجهولٍ

نحو غايةٍ مجهولةٍ....

من ديوان
«التّكريس»
(1934)

قرابينُ خريفية

كن رابطَ الجأشِ، صامتاً، وانتظرْ،

انتظرِ الحيوانَ الوحشيّ، انتظرِ الإنذارَ الآتي،

انتظرِ المعجزةَ، انتظرِ الفناءَ الآتي،

عندما تخِـفُّ حدّةُ الوقتِ.

تحلّقُ مع نجومٍ آفلةٍ، محترقة، تعبرُ،

تُقبِلُ في الفجرِ أو ساعةَ السَحَرِ،

لا الليلُ ولا النهارُ موعدُها.

سوفَ تُقبل عندما تتوسَّدُ الشمسُ الترابَ، والقمرُ الحجرَ،

بنجومٍ آفلةٍ، على قاربٍ متفحِّم...

حينئذٍ، ستُفتَح البوّاباتُ الداميةُ لكلِّ شيءٍ ممكنٍ.

حينئذٍ، ستوصَدُ البوّاباتُ الخاليةُ من الدمِ، إلى الأبد.

سوفَ تمتلئُ الأرضُ بخطواتٍ غيرِ مرئيّةٍ، والهواءُ بأنوارٍ كبرى.

ستهوي المدنُ في ميعادِها كما دقّاتُ الساعة.

ستتفجَّرُ صدَفات الآذانِ كتلكَ التي في أعماقِ المياه.

ورزانةُ الوقتِ اللامحدودةُ سوف تتخلَّد،

عميقاً في نظراتٍ ميّتةٍ، في أنواءٍ مترنِّحةٍ،

من المعجزةِ التي تلامس بيوتهم عابرةً.

كن رابطَ الجأشِ، صامتاً، وانتظرْ،

كاتماً أنفاسَك، حتى يفتح الفجرُ مقلتَه،

حتى يطبقَ السَحَرُ جَفنَه.

من ديوان
«متأخِّر على الأرض»
(1931)

تغفو الورودُ عندَ النافذة

تغفو الورودُ عندَ النافذةِ، والقنديلُ يحملقُ منيراً،

والشبّاكُ خالي البالِ، يحملقُ في العتمةِ في الخارجِ.

اللوحاتُ تُظهرُ، ببرودٍ، محتواها المعهودَ،

والذباب على الجدارِ.. راكد يُفكِّر.

الورودُ تتَّكئُ على الليلِ، والقنديلُ يغزلُ نوراً.

في الزاويةِ، تغزلُ القطّةُ كُبّةَ صوفٍ لتغفوَ معها.

بين الحينِ والآخر، يَشخُرُ إبريقُ القهوة بعبقٍ،

والأطفالُ يلهونَ، بصمتٍ، على أرضِ الغرفةِ.. بكلمات.

الطاولةُ المكسوَّةُ بالأبيضِ..

في انتظارِ أحدٍ ما.

لا ترتقي خطواتُه السلَّم.

في البعيدِ، يخترقُ الصمتَ قطارٌ

لا يبوحُ بسرِّ الأشياءِ،

لكنّ القدرَ يُحصي دقّاتِ الساعةِ، بكسورٍ عشريّة.

الفهرس

ديوان «دليل إلى العالم السفلي» (1967) 11

ديوان «عن أمير أميجيون» (1965) 17

ديوان «حكاية فاطمة» (1961) 35

ديوان «أوبس إنكرتون» (1959) 39

ديوان «خزعبلات» (1955) 51

ديوان «بارتيتور» (1955) 71

ديوان «في الخريف» (1951) 75

ديوان «ليلة في أوتاجاك» (1945) 97

ديوان «لا أخدم أحد» (1945) 137

ديوان «أغنيّة العَبّارة» (1941) 149

ديوان «اشْترِ أغنيّةَ الأعمى» (1938) 153

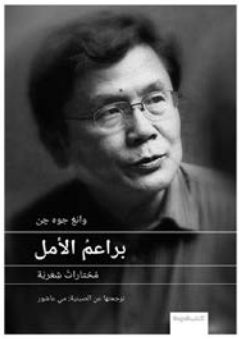
ديوان «التكريس» (1934) 157

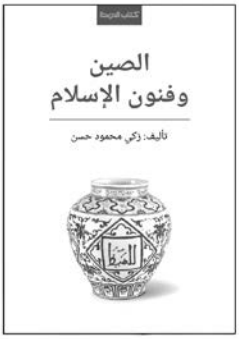
ديوان «متأخِّر على الأرض» (1931) 161

صدر من سلسلة كتاب الدوحة

1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم – بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين – أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة – مختارات شعرية – الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حريّة الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم – مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
--	فتنة الحكاية جون أديك – سينثيا أوزيك – جيل ماكوركل – باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر – مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري

33	سراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حمّيش
36	حي بن يقظان – تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة – ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال – مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف – رسائل إلى العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير"	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل – ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زينة المعنى (الكتابة ، الخط ، الزخرفة)	يوسف ذنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق (تحـوُّلات الصـفـوة العارفة في المجتمع العربي الحديث)	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت ترجمة وتقديم: بوداود عمير
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
55	مأساة واق الواق	محمد محمود الزبيري
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللغة والآداب والفنّ والحضارة)	مي زيادة
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	قسم التحرير «مجلة الدوحة»
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (١٩٣٢) تحقيق: رشيد العفاقي	أليكسي شوتان –تعريب: عبد الكريم أبو علو
59	قيصر وكليوبترا	إسماعيل مظهر
60	الصين وفنون الإسلام	ذكي محمود حسن
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي

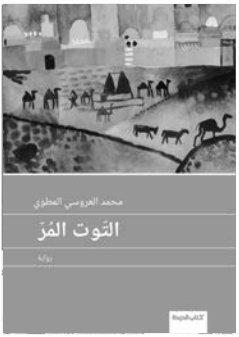












يمكنكم تصفح النسخة الإلكترونية من كافة إصدارات السلسلة
على موقع مجلة الدوحة الإلكتروني www.aldohamagazine.com